﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: 50 - 51]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلهما:

العلاقةُ بين أعداءِ المؤمنين في الدُّنيا، ومصيرِهم في عذابِ النّارِ في الآخرةِ

لمّا بيَّنَ اللّهُ تعالى أحوالَ أعداءِ المؤمنينَ، المجاهرينَ والمتستِّرينَ في الدُّنيا؛ بيَّنَ أحوالَ موتِهم والعذابَ الَّذي يصلُ إليهم في ذلك الوقتِ[1]، ولمّا عذَّبوهم قولًا وفعلًا؛ علَّلوا لهم ذلكَ بقولِهم زيادةً في تأسيفِهم وتوبيخِهم: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، وأيضًا لما وُفِّيَ وصفُ حالِ المشركين، وفُصِّلَت أحوالُ هزيمتهم ببدرٍ، وكيف أمكنَ اللّهُ منهم المسلمين على ضعفِ هؤلاء، وقوَّةِ أولئك، بما شاهدَهُ كلُّ حاضرٍ، حتَّى ليوقنَ السّامعُ أنَّ ما نالَ المشركين يومئذٍ، إنَّما هو خذلانٌ من اللّهِ إيّاهم، وإيذانٌ بأنَّهم لاقونَ هلاكَهم ما داموا مناوئين للّهِ ورسولِه؛ انتقلَ إلى وصفِ ما لقيَهُ من العذابِ مَن قُتِلَ منهم يومَ بدرٍ، ممّا هو مغيَّبٌ عن النّاس، ليعلمَ المؤمنون، ويرتدعَ الكافرونَ، والمرادُ بالَّذين كفروا هنا الَّذين قُتِلوا يومَ بدرٍ، وتكون هذه الآيةُ من تمامِ الخبرِ، عن قومِ بدرٍ، ثمَّ أعقبَهُ قولهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، لقصدِ التَّنكيلِ والتَّشفّي[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَوَفَّى﴾: يدورُ معنى (وفي)، على إكْمالٍ وإتْمام، ومنه الوَفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكْمالُ الشَّرْطِ، والوافي: الَّذي بلغَ التَّمامَ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/493.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/39.

وتَوَفَّيْتُ الشَّيْءَ: بذلته تامًّا، واسْتَوْفَيْتُهُ؛ إذا أخذتُهُ كُلَّهُ، حتَّى لَم تَتْرُكْ منه شَيْئًا، ومنه يُقالُ لِلْمَيِّت: تَوَفّاهُ الله، وقد وفَى الشَّيْءُ بنَفْسِه يَفي؛ إذا تَمَّ، وقد عبَّرَ عن الموتِ النَّومِ بالتَّوَفّي؛ وإذا أطلقَ اللَّفظَ، فقيلَ: وفاةٌ، فيُقصدُ بهِ الموتُ، والتَّوفّي هنا: استيفاءُ الأرواحِ، أي: استعادةُ الله تعالى إيّاها[1].

2) ﴿وَأَدْبَرَهُمْ﴾: الدُّبُرُ خِلافُ القُبُلِ، ودُبُرُ كُلِّ شَيْءٍ: عَقِبُهُ ومُؤخَّرُهُ، وجَمْعُهُما: أدْبارٌ، ودَبَرَ النَّهارُ وأدْبَرَ، وذلك إذا جاءَ آخِرُهُ، وهو دُبُرُهُ، وقَطَعَ الله دابِرَهُم، أيْ: آخِرَ مَنْ بَقيَ منهم، وقولهُ تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾، أي: وجوهَهم وخلفهم[2]، قال الكسائيُّ: ﴿وَإِدْبَرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطّور: 49]؛ لأنَّ لها دبرًا واحدًا في وقتِ السَّحرِ، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: 40]؛ لأنَّ مع كلِّ سجدةٍ أدبارًا، ودابرُ الشَّيءِ: آخرُهُ، وفي التَّنزيلِ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنعام: 45]، أي: استؤصِلَ آخرُهم، ودابرةُ الشَّيءِ، كدابرِه، وجاء دبريًّا: أي: أخيرًا، وفلانٌ (لا يصلّي الصَّلاةَ إلّا دبريًّا)، أي: أخيرًا[3].

3) ﴿وَذُوقُوا۟﴾: ذاقه ذوقًا، اختبرَ طعمهُ وأصلُهُ، فيما يقلُّ تناولُهُ، "فإنَّ ما يكثرُ من ذلكَ، يقالُ له: الأكلُ، وأذقتُهُ أنا إذاقةً، وفي البصائرِ والمفرداتِ: اختيرَ في القرآنِ لفظُ الذَّوقِ للعذابِ؛ لأنَّ ذلك، وإن كانَ في التَّعارُفِ للقليل، فهو مستصلحٌ للكثيرِ، فخصَّهُ بالذِّكرِ، ليعلمَ الأمرين، وكثرَ استعمالُهُ في العذابِ، وقد جاءَ في الرَّحمةِ نحو قولهِ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ [فصّلت: 50]"[4]، والذَّوقُ: مباشرةُ الحاسَّةِ الظّاهرةِ، أو الباطنةِ، ولا يختصُّ ذلك بحاسَّةِ الفمِ في لغةِ القرآنِ، ولا في لغةِ العربِ، قالَ تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، وقالَ تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ [ص: 57][5].

4) ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾: الحرْقُ: حَكُّ الشَّيْءِ بالشَّيْءِ، معَ حَرارَةٍ والتِهابٍ، والمعنى المحوريُّ: الَّذي تدلُّ عليه هذه المادَّة: تحويلٌ حادٌّ أو بالغٌ، ينالُ مادَّةَ الشَّيءِ وحقيقتَهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّومي، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وفيَ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (دبر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (دبر)، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 9/311.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: 25/326.
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: 25/326.

كالنّارِ، وهي تُفني حقيقةَ ما تُحرقُهُ، وتحوِّلُهُ رمادًا[1]، والمعنى: لهم عذابٌ بكفرِهم، وعذابٌ بإحراقِهم المؤمنينَ، و"التَّحريقُ: تأثيرُ النّارِ في الشَّيء، وفي الحديثِ: (الحَرِقُ شهيدٌ)، هو بكسرِ الرّاءِ: الَّذي يقعُ في النّارِ، فيلتهبُ"[2]، والحريقُ صفةٌ للنّارِ، يرادُ أنَّها محرقةٌ، والمرادُ بهِ هنا، هو عذابُ جهنَّمَ، والعياذُ باللّه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ توفّي أرواحِ الكافرينَ معَ عذابٍ مؤلمٍ مهينٍ، بما قدَّمَت أيديهم

ولو تُعاينُ - يا رسولَ اللّهِ - حين يتوفَّى الملائكةُ أرواحَ الكفّارِ، فتنزعُها من أجسادِهم، تضربُ الوجوهَ منهم والأدبارَ، ويقولون لهم: ذوقوا عذابَ النّارِ الَّتي تحرقُكم يومَ ورودِكم جهنَّم، هذا العذابُ لكم بما كسبت أيديكم، من الآثامِ والمعاصي أيّام حياتِكم، فذوقوا اليومَ العذابَ، وفي معادكم عذابُ الحريق، ذلك الجزاءُ الَّذي أصابَكم بسببِ أعمالِكم السَّيِّئة في حياتِكم الدُّنيا، وبسببِ أنَّ اللّه لا يظلمُ أحدًا من خَلْقِه، فيجزي المحسنُ بإحسانِه، ويجزي المسيءَ بإساءتِه، فلا يعذِّبُ بغيرِ ذنبٍ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الشَّرطِ في الآية:

يجوزُ أن تُخطِئ المنايا، والخلدُ في الدَّهرِ لا يجوزُ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، لمّا كانت كلمةُ ﴿وَلَوْ﴾ هنا، لتعليقِ ما امتنعَ بامتناعِ غيرِه، على سبيلِ القطعِ والجزم[4]؛ أفادَ الشَّرطُ امتناعَ الجزاءِ، لامتناعِ الرُّؤيةِ في وقتِ قبضِ أرواحِ الكافرين، ويأتي هذا الأسلوبُ، لبيانِ عظمِ الجزاءِ، وأنَّهُ كان بحيثُ يصعبُ تصوُّرُهُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حرق).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: 25/157.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/15 - 18، ونخبة من أساتذة التّفسير، التفسير الميسر، ص: 183.
(4) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 246.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَرَىٰ﴾ على المفردِ المخاطبِ:

لا تختصُّ الرُّؤيةُ برءاٍ دونَ آخرَ؛ إذْ كلُّ راءٍ، لـه مدخلٌ في الخطابِ

لمّا كانَ حقُّ الخطابِ أن يكونَ معَ مخاطَبٍ معيَّنٍ، وجاء الفعلُ ﴿تَرَىٰ﴾ - وهو بمعنى الرُّؤيةِ البصريَّةِ - خطابًا للرَّسولِ ﷺ، وقصدَ بهِ غيرَ المعيَّنِ؛ دلَّ على معنى العمومِ، لصلاحيَّةِ الخطابِ؛ لأن يخاطب به كلُّ أحدٍ، فيدخلُ فيهِ الرَّسولُ ﷺ وغيره؛ قصدًا لتفظيعِ حالِ الَّذين كفروا، وخاطبَ بهِ الرَّسولَ دونَ غيرِه، لعظمِ الأمرِ، ولعلمِه بصنعِ اللّهِ أكثرَ من غيرِه، وجاءَ بصيغةِ المضارعِ للمخاطبِ، ليكونَ على خلافِ مقتضى الظّاهرِ، من أنَّ الأصلَ دخولُ (لو)، على الماضي؛ إيذانًا بأنَّ الرُّؤيةَ قد بلغت من الظُّهورِ إلى حيثُ يمتنعُ خفاؤها ألبتَّة، فلا تختصُّ رؤيةُ راءٍ دونَ راءٍ، بل كلُّ من يتأتَّى منه الرُّؤية، فلهُ مدخلٌ في الخطابِ، ليفيدَ الخطابُ التَّجدُّدَ والتَّكرارَ والاستمرارَ، ونُظِمَ هنا الفعلُ المضارعُ الدّالُّ على المستقبلِ في سلكِ الماضي المقطوعِ به، لصدورهِ عمَّن لا خلافَ في أخبارهِ، كما أنَّ في مجيءِ الفعلِ المضارعِ إشعارًا باستحضارِ صورةِ الَّذين كفروا، والملائكةُ يتوفّونهم، ويقولون لهم: ذوقوا عذابَ الحريقِ، تنكيلًا بهم وترويعًا للمخاطبين، لئلّا يكونوا مثلَهم[1].

دلالةُ حذفِ المفعولِ بهِ:

هولُ حالِ الكفرةِ بشدَّةِ سكراتِ الموتِ وأنواعِ الكُرباتِ

في قولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾، حُذِفَ مفعولُ ﴿تَرَىٰ﴾ لإفادةِ العمومِ بمعنى التَّهويلِ والتَّعظيمِ، والتَّقديرُ: (ولو ترى الكفرةَ)، أو (ولو ترى حالَ الكفرةِ حينئذٍ)، ورُجِّحَ كونُ المحذوفِ (حال الكفرة)؛ لأنَّ المقصودَ رؤيةُ حالِهم، من شدَّةِ سكراتِ الموتِ، وأنواعِ الكرباتِ[2].

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 180، 246، والبهاء السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/170، 356، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/40.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/105.

دلالةُ الظَّرفِ ﴿إِذْ﴾:

تهويلُ تصويرِ وقتِ قبضِ الملائكةِ أرواحَ الَّذين كفروا

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، تفيدُ ﴿إِذْ﴾ هنا تعظيمَ الوقتِ الَّذي تقبضُ فيه الملائكةُ أرواحَ الَّذين كفروا، وتعظيمَ وقتِ الضَّربِ، ووقتِ قولِهم الَّذي يقولونهُ لهم، كما تشعرُ (إذ) بالتَّعليلِ[1]، فقد أشعرَ الكلامُ من بدايتِه بالتَّهويلِ والتَّفظيعِ، بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾، فجاءت ﴿إِذْ﴾ مُعلِّلَةً هذا التَّهويلَ، وكأنَّ المعنى لِمَ هذا التَّهويلُ والتَّعظيمُ؟ فقيلَ: لما يقعُ حينَ تتوفَّى الملائكةُ الَّذين كفروا.

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

جوابُ (ولو) محذوفٌ للإيذانِ بخروجِهِ عن حدودِ البيانِ

حُذِفَ جوابُ الشَّرطِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ضرْبَ الملائكةِ وجوهَ الكفّارِ وأدبارَهم، حين يتوفّونهم، وقولَهم؛ أمرٌ لا يحيطُ به الوصفُ، ولتذهبَ نفسُ السّامعِ كلَّ مذهبٍ ممكنٍ، فلا يتصوَّرُ مطلوبًا، ولا مكروهًا، إلّا ويجوزُ أن يكونَ الأمرُ أعظمَ ممّا يتصوَّرُهُ، ولو ذكرَ الجوابَ هنا، فربَّما خفَّ أمرُهُ عند السّامعِ، فأشعرَ حذفُ الجوابِ أنَّ فظاعةَ الضَّربِ والقول الَّذي قالوهُ لهم، بلغَ مبلغًا، يبهتُ السّامعَ[2]، وتقديرُ الكلامِ للتَّقريبِ: لو عاينتَ وشاهدتَ؛ لرأيتَ أمرًا عظيمًا فظيعًا[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿يَتَوَفَّى﴾ و﴿يَضْرِبُونَ﴾:

حالُ الكافرين في سوءِ العقبى، نقيضُ حالِ أهلِ الإيمانِ والتَّقوى

لاستحضارِ صورةِ الحالةِ الَّتي يكونونَ عليها، للتَّحذيرِ من أعمالِهم، وليستبشرَ المؤمنون بحالِ إيمانِهم، ويحمدوا اللّٰه على أنَّهم ليسوا مثلَهم، كما يفيدُ المضارعُ تجدُّدَ الحدوثِ وتكرارَهُ، واستمرارَهُ، لكلِّ كافرٍ باللّٰهِ[4].

دلالةُ الموصولِ وصلتِهِ:

في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، جاءَ الكلامُ على صيغةِ

(1) الرّضيّ، شرح كافية ابن الحاجب: 3/282.
(2) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/188، والبهاء السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/593.
(3) مكّي بن أبي طالب، الهداية: 4/2847، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/217.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/40.

الموصولِ وصلتِه، لما تفيدُهُ الصِّلَةُ من معنى معلومِ الانتسابِ إلى مشارٍ إليهِ معيَّنٍ، ليدخلَ في المذكورِ كلُّ من يحدثُ الكفرَ أو يتَّصِفُ بهِ، كما أفادَ التَّعبيرُ الإيماءَ، إلى أنَّ سببَ نيلِهم العذابَ الفظيعَ المذكورَ، هو كفرُهم[1].

كـلُّ مـنِ اتَّـصفَ بـالـكـفـرانِ، كـانَ مـصيرهُ الـعـذابَ والهوانَ

سببُ حذفِ متعلَّقِ الفعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾:

لم يقلْ: (الَّذينَ كَفَروا باللهِ) مثلًا، للإشعارِ بالعمومِ، فيشملُ من كفرَ باللهِ وبرسولِه، وباليومِ الآخرِ، وكلَّ من كفرَ بما يجبُ الإيمانُ بهِ، وكلَّ فعلٍ يخالفُ شرعَ اللهِ، وينذُّ عن أمرِهِ وهداهُ، ممّا نصَّ عليهِ القرآنُ، وبيَّنتهُ سنَّةُ سيِّدِ عدنانَ، فهو آيلٌ إلى الكفرِ، ولهذا أطلقَ في الآيةِ بعدمِ ورودِ المتعلَّقِ، ولم يقيِّدِ المعنى في واحدٍ من فعالِ الكفرِ الكثيرةِ، حتَّى يتلاءمَ السِّياقُ مع كلِّ الألوانِ من الكفرانِ، إشارةً إلى أنَّ الكفرَ كلَّهُ ذميمٌ.

ارتـبـاطُ شـرحِ أحـوالِ الـكُـفّـارِ بأحوالِ موتِهم وعذابِهم المخزي المهينِ

دلالةُ الوقفِ والابتداءِ في تنوُّعِ المعنى:

يحتملُ أن يكونَ قولهُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، مفعولًا والفاعل محذوفًا، والتَّقديرُ: (إذ يتوفَّى اللهُ الَّذين كفروا)، فيكونُ الوقفُ على ﴿كَفَرُواْ﴾، ثمَّ تبتدئُ: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾، على الابتداءِ والخبرِ؛ لأنَّ اللهَ هو الَّذي يتوفَّى الأنفُسَ، قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: 42]، واختارَ النّيسابوريُّ أن يكونَ الوقفُ على (كفروا) ممنوعًا؛ لاختلالِ النَّظمِ وفسادِ المعنى[2]، كما يحتملُ الوقفُ على ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ويكونُ لفظُ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فاعلًا مؤخَّرًا، ويبتدئ بـ﴿يَضْرِبُونَ﴾ على إضمارِ مبتدأٍ، أي: (هم يضربون)، والأحسنُ من هذا كلِّه والأولى: الوقفُ على ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾، وهو وقفُ التَّمامِ، ويبتدئ بقولهِ: ﴿وَذُوقُواْ﴾ على معنى: ويقولون[3].

التَّـوفّي قـدرُ اللهِ وأمـرُهُ، والملائكةُ منفِّذونَ للإماتةِ والعذابِ

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181 - 182.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/409.
(3) مكّي بن أبي طالب، الهداية: 4/2848، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، والأشمونيّ، منار الهدى: 1/296.

دلالةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، قُدِّمَ المفعولُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على الفاعلِ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ للاهتمامِ بهِ؛ لأنَّ الحديثَ منصبٌّ على الَّذين كفروا في الأساسِ[1]، "وتقديمُ المفعولِ للاهتمامِ بهِ، وقيل: الفاعلُ ضميرٌ عائدٌ إلى اللهِ ﷻ ، والملائكةُ مبتدأٌ"[2]، فقد خرجَ الكفّارُ على حالٍ من الزُّهوِ والكبرياءِ، وقد آلَ بهم الغرورُ إلى سوءِ المصيرِ، "فهاهُم أولاءِ يتلقّون الصَّفعاتِ على وجوهِهم، والضَّرباتِ على أدبارِهم، كما يُفعَلُ بعبيدِهم وإمائِهم!"، فما أجدت لهم عزَّةٌ، ولا منعتْهُم منعةٌ، ولا نفعتْهُم سطوةٌ، ولا أغنى عنهم جاهٌ، لقد عروا من هذا كلِّه، "ولبسوا ثوبَ الخزي والمهانةِ، ونزلوا إلى أسوأِ ممّا كانَ عليهِ الأرقّاءُ، من عبيدٍ وإماءٍ!"، وتلك سنَّةُ اللهِ في تأديبِ كلِّ مفسدٍ ومعاندٍ[3].

من حاربَ اللهَ ورسولَهُ؛ آلَ إلى الخزي في الدُّنيا، والعذابِ في الآخرةِ

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ لمعاني الآيةِ الدّلاليَّةِ:

في قولِه: ﴿يَتَوَفَّى﴾، جاءتْ قراءةُ ابنِ عامرٍ بتأنيثِ الفعلِ، أي: (تتوفَّى) بالتّاء الفوقيَّةِ، وقرأ البقيَّةُ بالياءِ التَّحتيَّةِ[4]، وعلى قراءة التَّأنيثِ لا يوقف على ﴿كَفَرُواْ﴾، بل يوقفُ على ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أو ﴿وَأَدْبَرَهُمْ﴾، وهو الأحسنُ - كما تقدَّم - فتكون قراءةُ ابن عامر مقوّيةً لأن يكون ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فاعل ﴿يَتَوَفَّى﴾، وألّا يوقف على ﴿كَفَرُواْ﴾، وأُنِّثَ الفعلُ لتأنيث لفظ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وأمّا الجمهورُ؛ فيرونَ أنَّ تأنيثَ الملائكةِ، مجازيٌّ وليس حقيقيًّا، هو جمع تكسيرٍ، والفصلُ بين الفعلِ والفاعل يجيزهُ كما هنا؛ إذ فصل بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[5].

باختلافِ القراءاتِ القرآنيَّةِ، يتَّسعُ المعنى، وتتنوَّعُ الدّلالاتُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/102، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/105.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/635.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/277.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/336، والأشمونيّ، منار الهدى: 1/296.

دلالةُ الجملةِ بين الحاليَّةِ والبدلِ:

ذكرُ الاشتمالِ على الضَّربِ دونَ غيرِه لفظاعتِهِ وهولِه

تحتملُ جملةُ ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾، أن تكونَ حالًا من الفاعل ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أو من الفاعلِ والمفعولِ، لاشتمالِ جملةِ الحالِ، على ضميرينِ راجعينِ إليهما، والتَّقديرُ: (يتوفّى الَّذين كفروا الملائكةُ، حالَ كونِهم يضربونَ وجوهَهم وأدبارَهم)، أي: وقوعُ الضَّربِ في وقتِ التَّوفّي تنكيلًا بهم، كما تحتمل أن تكونَ بدلَ اشتمالٍ، من جملةِ ﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾[1]، بمعنى اشتمالِ التَّوفّي على أنواعٍ من العذابِ، منها الضَّربُ على وجوهِهم وأدبارِهم، وذكْرُ الاشتمالِ على الضَّربِ دونَ غيرِه لفظاعته وهولِه.

ذكرُ الوجوهِ والأدبارِ بينَ الكنايةِ والمجازِ المرسلِ:

خُصَّتِ الوجوهُ والأدبارُ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ الخزيَ في ضَرْبِهما أشدُّ وأقوى

ذكَرَ الوجوهَ والأدبارَ لتعميمِ الضَّربِ الَّذي يقعُ عليهم، بمعنى إيصالِ الألمِ إليهم، بكلِّ ضربٍ، وبكلِّ جهةٍ على معنى الإحاطةِ، فهو من بابِ الكنايةِ؛ لأنَّ الوجوهَ والأدبارَ يُكنَّى بها عن جميعِ البدنِ، وقد يكونُ من بابِ المجازِ المرسلِ، حيثُ أطلقَ الجزءَ، وأرادَ الكلَّ، فذكرَ الوجوهَ والأدبارَ، وأراد الأعضاءَ كلَّها، وإنَّما خصّوهما بالضَّربِ؛ لأنَّ الخزيَ والنَّكالَ في ضربِهما أشدُّهُ كما أنَّ إيقاعَ الأذى فيهما أقوى[2].

نكتةُ حذفِ القولِ في قولِه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾:

حذفُ القولِ إيجازًا؛ لانصبابِ الكلامِ على المقولِ

قولُه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، حذفَ القولَ فيهِ إيجازًا؛ فإن كانَ من قولِ الملائكةِ – وهو الظّاهرُ من السّياقِ – فيكونُ من عطفِ الجملة الخبريَّةِ على ما قبلَها، ليجتمعَ عليهم عذابُ الفعلِ، وعذابُ القولِ، والتَّقديرُ: (ويقولونَ: ذوقوا عَذابَ الحَريقِ)[3]، وإن كانَ من قولِ اللّهِ تعالى، فيكونُ التَّقديرُ: (ونقولُ)، وهذا النَّوعُ من الحذفِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/40.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/239، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/63، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/106، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/41.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/413، وابن جرير، جامع البيان: 13/17.

- أي: حذفُ القولِ - كثيرٌ في القرآن، وهو من الإيجازِ البديعِ في الكلام، كما في قولِه تَعالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البَقَرَة: 127] أيْ: ويقولانِ: رَبَّنا، وقولِه سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ [السَّجْدَة: 12] أيْ: يَقولونَ: رَبَّنا[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾:

الاستعارةُ تصويرٌ بديعٌ، يكسو السّياقَ جمالًا وروعةً

لمّا كان الأصلُ في الذَّوقِ أن يكونَ باللِّسان والفم؛ كان التَّعبيرُ عن إصابةِ العذابِ لهم بالذَّوقِ، من بابِ الاستعارة المكنيَّةِ التَّخييليَّةِ، حيثُ شبَّهَ العذابَ بشيءٍ محسوسٍ من شأنِه أن يُذاقَ، بجامعِ المباشرةِ؛ إذ الذَّوقُ من أبلغِ أنواعِها، وحاسَّتُهُ مميَّزةٌ جدًّا، فحذفَ المُشبَّهَ به، وترك شيئًا من لوازمِه، وهو الذّوق، وأسندهُ إلى المُشبَّهِ بجامعِ بقاءِ الأثرِ والإحساسِ به، ويمكن حملُها على التَّصريحيَّةِ، بتشبيهِ إصابةِ العذابِ بتذوُّقِه، بجامعِ الوصولِ إلى المقصودِ في كليهما[2].

دلالةُ الفعلِ ﴿وَذُوقُوا۟﴾:

الأمرُ بالذَّوقِ على طريقِ التَّهكُّم، يقالُ للمنتقمِ منه عادةً

جاء فعلُ الأمرِ ﴿وَذُوقُوا۟﴾ دالًّا على المجاز، وجاءَ بأسلوبِ البشارةِ لهم؛ ليفيدَ هنا الإهانةَ على طريقِ التَّهكُّم، وهو كلامٌ يقالُ للمنتقمِ منهُ[3]، وعليه فإنَّ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، لا يخلو من تهكُّمٍ بهم؛ لأنَّهم فسقوا، وذاقوا من الهوى ما ذاقوا، فكأنَّهُ يقالُ لهم: كما ذقتُم المتعَ والشَّهواتِ، فذوقوا الحريقَ، وكأنَّهُ يبشِّرُهم"[4]، و"قيل: كانوا يقولونَ للكفّارِ حينئذٍ هذا اللَّفظَ، فحذْفُ (يقولون) اختصارٌ، وقيل: معناهُ: وحالهُم يومَ القيامةِ أن يقالَ لهم هذا[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/146، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 260.
(2) الهَرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 11/84.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/447، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/106، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/42.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3159.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/540.

دلالةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾:

إضافةُ العذابِ إلى الحريقِ إضافةٌ بيانيَّةٌ من بابِ إضافةِ الجنسِ إلى نوعِه لبيانِ هذا النَّوعِ[1]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، هو بيانٌ للمصيرِ الَّذي صارَ إليهِ أولئك المشركونَ الَّذين أذلَّ اللّهُ كبرياءَهُم في هذا اليوم، يومَ بدرٍ، وهو مصيرٌ مشؤومٌ، يُلقى بهم في سواءِ الجحيمِ، حطبًا لجهنَّمَ، ووقودًا لسعيرِها"[2].

العذابُ بكلِّ أنواعِهِ مهلكٌ للنَّفسِ مدمِّرٌ للكرامةِ والضَّميرِ

دلالةُ صيغةِ (فعيل) في قولِهِ: ﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾:

صيغةُ فعيلٍ هنا بمعنى اسمِ الفاعلِ، مثل الأليمِ بمعنى مؤلِمٍ، والمعنى: ذوقوا العذابَ الَّذي هو من نوعِ العذابِ المحرقِ[3]، وجاءَ بصيغةِ فعيلٍ؛ للمبالغةِ لِما تدلُّ عليه صيغةُ فعيلٍ، من معنى وصفِ الحرقِ الثّابتِ لهذا العذابِ، أعاذنا اللّهُ منهُ.

مجيءُ صيغةِ (فَعيلٍ) بمعنى اسمِ الفاعلِ للثُّبوتِ في الوصلِ

مناسبةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾:

يحتملُ أن يكونَ المرادُ من عذابِ الحريقِ، عذابَ النّارِ نَفْسِها، بذوقِهم العذابَ في الآخرةِ، وهو الظّاهرُ؛ لأنَّ عذابَ الآخرةِ أشدُّ وأبقى، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ حالَةَ المَوْتِ في الدُّنيا، أي: ذوقوا مقدِّمةَ عذابِ النّارِ[4]؛ ليكونَ الموتُ نكالًا عليهم، وما بعدَه أشدُّ.

عذابُ الحريقِ: هو عذابُ النّارِ نفسِها، وهو أشدُّ العذابِ

دلالةُ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، "إنَّما قال: (ذلك) على خطابِ الواحدِ، ولم يقل: (ذلكم)، على قياسِ اللُّغةِ الأُخرى، بأن يقالَ: (ذلكُم بما قَدَّمَتْ أيْديكُمْ)، لأنَّهُ أرادَ به الجمعَ، فكأنَّهُ قال: (ذلك أيُّها الجمعُ)، والجمعُ بلفظِ الواحدِ، وهُما لغتانِ جيِّدتانِ

التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ (ذلك) استحضارٌ للصّورةِ المهيبةِ، لفظاعةِ المشهدِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/41.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/636.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/548، 2/540.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/336، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/409، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/106.

نزلَ بهما القرآنُ"[1]، وقد عُبِّرَ بلفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لإحضارِ المشارِ إليه، وهو الضَّربُ والعذابُ في ذهنِ السّامعِ، بالإشارة إليهِ، للدَّلالةِ على وضوحِه، ولتمييزِهِ أكملَ تمييزٍ وتعيينٍ؛ إشعارًا بالقطع بحصولِ الضَّربِ والعذابِ على المجموعِ، وعُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الإشارة الَّذي للبعيدِ، للإشعارِ بكونهما استحضارًا للصّورةِ المهيبةِ لفظاعةِ المشهدِ، لمن لم يكن حاضرًا، بتعظيم ما يشاهدونه من الأهوال[2]، وفيه استحضارٌ للصّورةِ المهيبةِ؛ لفظاعةِ المشهدِ، لمن لم يكن حاضرًا.

دلالةُ (الباء) في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾:

إسنادُ ما قدَّمَ من عملٍ إلى اليدِ من دقَّةِ البيانِ وتلاؤمِه مع المرادِ

تفيدُ الباءُ معنى السَّببيَّةِ، أي: بسببِ ما قدَّمت أيديكم، وجيءَ بالسَّببِ للإيذانِ أنَّ هذا العذابَ لعظمِ هولِهِ، ممّا يتساءلُ عن سببه[3]، ولأهمّيَّةِ اليدِ في الفعلِ والسَّببِ، "نحن نعلمُ أنَّ معظمَ أعمالِ الإنسانِ يزاولها بيدِه، وقد يفعلُ أشياءَ بقدميهِ أو بلسانِه؛ لكنَّ معظمَ الأعمالِ تتمُّ باليدِ؛ لأنَّ اليدَ تحملُ القدرةَ على الفعلِ، فسبحانه لم يفتَئِتْ عليهم"[4].

دلالةُ الواوِ بين العطفِ والاستئنافِ:

غرضُ الاعتراضِ التَّذييليِّ في قولِهِ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

تحتملُ الواوُ في قولِهِ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، أن تكونَ عاطفةً تفيدُ التَّشريكَ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ، فتكونُ الباءُ السَّببيَّةُ داخلةً على المعطوفِ كذلك، على معنى الاجتماعِ مع المعطوفِ عليهِ، للدَّلالةِ على أنَّ سببيَّةَ العذابِ في قولِهِ: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، مقيَّدةٌ بانضمامِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ إليه،

(1) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 10/36.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/41.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/185.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/185.

أي: بسبب اجتماعِ أمرين: ما قدَّمت أيديكم من المعاصي، وأنَّ اللّه ليس بظلّام للعبيدِ؛ إذ لولا أنَّه تعالى ليس بظلّامٍ للعبيدِ، وأنَّه عادلٌ عليهِم؛ لأمكنَ أن يعذِّبَهم بغيرِ ذنوبِهم، ومن العدلِ أن يعاقبَ المسيءَ منهم، ويثيبَ المحسنَ، وفائدةُ العطفِ: هي الإيذانُ: أنَّ ما قدَّمت أيديهِم، أوجبَ حصولَ العذابِ، وعدْلُ اللّهِ أوجبُ، كونُ هذا العذابِ في مقدارِهِ المشاهدِ من الشِّدَّةِ، حتَّى لا يظنّوا أنَّ في شدَّتهِ إفراطًا عليهم في التَّعذيبِ، كما تحتملُ أن تكونَ جملةُ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ اعتراضًا تذييليًّا مقرِّرةً لمضمونِ ما قبلَها، بمعنى: كلُّ ما حصلَ من القتالِ ومقدِّماتِه، وما حصلَ بعدَهُ، وما قدَّمتموهُ بأيديكم، ليس بظلمٍ من اللّهِ لكم، وأنَّه تعالى لا يعذِّبكم من غيرِ ذنبٍ[1].

بلاغةُ قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ بين الاستعارةِ والمجازِ والتَّغليبِ:

يحتملُ قولهُ: ﴿قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، أن يكونَ مجازًا عن الكسبِ والفعل على طريقِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، بتشبيهِ الأعمالِ الَّتي اقترفوها، بما يجتنيهِ المجتني من الثَّمرِ، أو يقبضُهُ البائعُ من الأثمانِ، تشبيهَ المعقولِ بالمحسوسِ، وذكرِ رديفِ المشبَّهِ، وهو الأيدي الَّتي هي آلةُ الاكتسابِ للأعمالِ، في غالبِ أمرِ الإنسانِ، فأضيفَ كلُّ كسبٍ إليها، أي: بما قدَّمتْهُ أيديكم لكم، والمعنى ذلك واقعٌ بسببِ ما كسبتُم من الكفرِ والمعاصي[2]، ويحتملُ أن يكونَ كنايةً عن القدرةِ[3]، ويحتمل أن يكونَ مجازًا مرسلًا بالتَّعبيرِ عن الكلِّ باسمِ الجزءِ، فإنَّ الذَّنوب تكون بالألسنةِ وغيرها أيضًا، وعبِّرَ بالأيدي؛ لأنَّ بها البطشَ والأذى

تنوُّعُ المعاني البلاغيَّةِ للأسلوبِ الواحدِ براعةٌ في النَّظمِ القرآنيِّ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، والقنّوجي، فتح البيان: 5/194، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/185.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/25.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/146.

غالبًا[1]، كما يجوزُ أن يكونَ على سبيل التَّغليب، بأن نَسبَ ما قَدَّموهُ مِنَ المَعاصي القَوْليَّةِ والفِعْليَّةِ والاعْتِقاديَّةِ إلى الأيْدي، تغليبًا لها على غيرِها، ممّا يقعُ به الكسبُ؛ لِأنَّ الأيْديَ تُزاوِلُ أكْثَرَ الأعْمالِ، فكَأنَّ كُلَّ عَمَلٍ واقِعٌ بها[2].

تتابعُ المؤكِّداتِ:

اللـهُ لا يظلمُ النّـاسَ شيئًا، ونسبةُ الظُّلمِ إليهِ مستحيلةٌ

في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، أفادت (أنَّ) تأكيدَ مضمونِ الجملةِ الاسميَّةِ الَّتي تفيدُ تأكيدَ ثبوتِ المعنى وتقريره، وأفادتِ الباءُ تأكيدَ نفي الظُّلمِ عنِ اللّهِ تعالى، كما أنَّ توسُّطَ النَّفي بينَ المسندِ إليهِ والمسندِ، أفادَ تقوية الحكم[3]، واللّهُ عدلٌ مطلقٌ، لا يظلمُ النّاسَ شيئًا، وليس بظلّامٍ للعبيدِ، "إذ لا يعذِّب أحدًا بلا ذنبٍ، على أنَّه لو فعلَ، فلا يعدُّ ظلمًا، لاستحالةِ نسبةِ الظُّلم إليهِ؛ لأنَّهُ المالك المطلقُ، وللمالكِ التَّصرُّفُ بملكهِ كيفَ يشاءُ، ألا ترى أنَّكَ إذا هدمتَ دارَك، أو أخربت ما هو ملكك، لا يعترضُكَ فيه أحدٌ؟"[4].

دلالةُ حرفِ النَّفي ﴿لَيۡسَ﴾:

دقَّـةُ البيـانِ بإجراءِ التَّقابلِ بـينَ أفـرادِ الظُّلمِ، وأفرادِ العبيدِ

تُفيدُ ﴿لَيۡسَ﴾ في قولهِ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ استمرارَ النَّفي[5]، وهذا الأسلوبُ من دقَّةِ الأداءِ البيانيِّ، لإجراءِ التَّقابُلِ بينَ أفرادِ الظُّلم، وأفرادِ العبيدِ، فلو أنَّه تعالَى ظَلَمَ كُلَّ واحدٍ من عبادهِ، أقلَّ ظُلْمٍ؛ ولكنَّهُ لا يفْعَلُ ذلك، فهو ليْسَ بظلّامٍ، فاللّه ﷻ نفى ذلك عن نفسه في نصوصٍ أخرى، منها قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ [النّساء: 40]، وقولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3159.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/456، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/121.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 213 - 214.
(4) عبد القادر العاني، بيان المعاني: 5/301.
(5) السّامرائي، معاني النّحو: 4/191.

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: 44]، وقولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: 49][1].

دلالةُ صيغةِ (فَعّالٍ) في قولهِ: ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾:

نفيُ أدنى الظُّلمِ وأقصاهُ عن اللهِ؛ لأنَّه ليس بظالمٍ ولا ظلّامٍ

قد يقالُ: لمّا كانت صيغةُ فعّالٍ للمبالغَةِ؛ كانَ الأبلغُ في وصفهِ تعالى أن يُنفى عنهُ أدنى الظُّلم لا أكثره، أي: لمّا كان النَّفي منصبًّا على المبالغةِ؛ كان المعنى: وما ربُّك بكثيرِ الظُّلمِ؛ فالمنفيُّ هو الكثرةُ وحدَها، دونَ الظُّلمِ الَّذي ليس كثيرًا، وهذا معنًى فاسدٌ؛ لأنَّ اللهَ لا يظلمُ مطلقًا، لا كثيرًا ولا قليلًا، وجوابهُ من وجوه؛ **أوَّلًا**: أنَّ المرادَ نفيُ نفسِ الظُّلمِ، وجاءَ على خلافِ مقتضى الظّاهرِ، لما فيهِ من البيانِ أنَّ ما هم فيهِ من الأعمالِ القبيحةِ، يوجبُ العذابَ وأقصاهُ، فدلَّ على أنَّهم استحقّوا أشدَّ العذابِ؛ لأنَّهم أشدُّ المسيئينَ، فهم أحقّاءُ لعذاب الحريقِ، فيكونُ فيه إشارةٌ إلى عظمِ العذابِ على سبيلِ الكنايةِ، **ثانيًا**: أن يقال: إنَّ العذابَ الَّذي توعَّدَ بأن يفعله بهم، لو كان ظلمًا؛ لكان عظيمًا، فنفاهُ على حدِّ عظمهِ، لو كان ثابتًا. **ثالثًا**: جاء بصيغة التَّكثير ليناسبَ المتعلَّقَ ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾؛ ليكونَ توزيعًا على الآحادِ، كأنَّهُ قيل: ليس بظالمٍ لفلانٍ، ولا بظالمٍ لفلانٍ، وهكذا، فلمّا جمعَ هؤلاءِ عدلَ إلى ظلّامٍ لذلكَ[2]، **رابعًا**: أن يكونَ المرادُ من قولهِ: ﴿بِظَلَّامٍ﴾ بذي ظلمٍ، لمجيءِ فعّالٍ بمعنى صاحبٍ[3]، والمعنى على هذه الوجوهِ كلِّها هو أن يقال: كما أنَّ وقوعَ الظُّلمِ منهُ لعبيدهِ منتفٍ قطعًا، تعيَّن أنْ تكونوا أنتم الظّالمينَ لأنفسكم قطعًا فلوموها، فلا لومَ لكم إلّا عليها[4].

(1) عبد الرحمن، بلاغة اللّغة: 1/212.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/448، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/185.

(3) ابن مالك، شرح الكافية الشّافية: 4/1963، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/302.

(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/31.

دلالةُ اللّامِ الجارَّةِ ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾:

اللهُ تعالى منزَّهٌ عن الظُّلمِ كلِّه كتنزُّهِه عن سائرِ النَّقائِص

قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، ولم يقل: (بِظلّامٍ العبيدَ)؛ لما تفيدُهُ اللّامُ الدّاخلةُ على معمولِ صيغةِ المبالغةِ من تقويةِ نفي ظلمِه تعالى للعبيدِ، وتأكيدِه وتقريرِه[1]، "وبأنَّ اللّه تعالى ليس بظلّامٍ للعبيدِ، فيكونُ ذلك العذابُ ظلمًا منهُ على تقديرِ عدمِ وقوعِ سببِهِ من كسبِ أيديكم، ولكنَّ سببَ ذلك منكم، ثابتٌ قطعًا، كما أنَّ وقوعَ الظُّلمِ منهُ لعبيدِه، منتفٍ قطعًا، فتعيَّنَ أن تكونوا أنتم الظّالمين لأنفسِكم قطعًا، فلوموها فلا لومَ لكم إلّا عليها"[2]، وفي الحديثِ القدسيِّ الَّذي يرويهِ الرَّسولُ ﷺ عن ربِّه: «يا عِبادي إنّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسي، وجَعَلْتُهُ بينكُم مُحَرَّمًا، فلا تَظالَموا»"[3]، وعليه فاللّام ذاتُ أثرٍ في تقويَةِ المعنى، بنفي الظُّلمِ عنِ اللّهِ في الأساسِ وفي كلِّ حالٍ، مع ملاحظةِ أنَّ التَّعريفَ باللّامِ في ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ عوضٌ عن المضافِ إليهِ (عبيده)[4]، للنَّصِّ على استغراقِ العمومِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العباد والعبيد:

لـفـظُ الـعـبـادِ مقترنٌ بالرِّفعةِ، ولـفـظُ الـعـبـيدِ مرتبطٌ بالتَّحقيرِ

بيانُه أنَّه متى سيقت اللَّفظةُ في مضمارِ التَّرفيعِ والدَّلالةِ على الطّاعةِ، دونَ أن يقترنَ بها معنى التَّحقيرِ، وتصغيرِ الشَّأنِ، جاء بصيغةِ (عباد)، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠٧﴾ [البقرة: 207]، و[آل عمران: 30]، وقولهُ: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦﴾ [الأنبياء: 26]، وقولهُ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 53]، وقولُ عيسى في معنى الشَّفاعةِ، والتَّعريضِ لرحمةِ اللّهِ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: 118]، فنوَّهَ بهم، وأمّا العبيدُ، فيستعملُ

(1) السّامرائي، معاني النّحو: 3/74.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/31.
(3) أخرجه مسلم في صحيحه، باب تحريم الظّلم، برقم: (2577).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/42.

في التَّحقيرِ، ومنهُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46]، لأنَّهُ مكانُ تشفيقٍ وتنجيةٍ وإعلامٍ بقلَّةِ انتصارِهم ومقدرتِهم، وأنَّهُ تعالى ليس بظلّامٍ لهم معَ ذلك، ولمّا كانت لفظةُ العبادِ تقتضي الطّاعةَ، لم تقع هنا، ولذلك أنِسَ بها في قولهِ تعالى: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزّمر: 53]، فهذا النَّوعُ من النَّظرِ يسلكُ بهِ سبلُ العجائبِ في ميزةِ فصاحةِ القرآنِ العزيزِ، على الطَّريقةِ العربيَّةِ السَّليمةِ[1].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/461، 589، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/81 - 82.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»